

أسباب تقدّم المسلمين وتأخرهم من خلال تقرير جاسوس بريطاني في أوائل القرن الثامن عشر

عبّاس الجراري

في حديث سابق تناولتُ موضوع «الحوار الإسلامي الإسلامي»، وكان القصد منه إثارة الانتباه إلى ضرورة معرفة الذات وما يداخلها من أدواء، بدءاً من التفرق والتمزّق، هذه الظاهرة التي تكمن خلفها كثير من عوامل التخلف الذي يعانيه العرب والمسلمون. وفي هذا السياق يسعدني أن أدير معكم الحديث - وما يتبعه من نقاش - حول «أسباب تأخر المسلمين وتقدّمهم»، وذلك من خلال تقرير جاسوس بريطاني كتب قبل ثلاثة قرون.

ليس يخفى أن الواقع الإسلامي يشكو التخلف على مختلف الأصعدة والمستويات، كما يشكو التشتّت والانقسام وشيوع النزاعات والخلافات. ومن ثم فإنه تطفى عليه روح انهزامية استسلامية يائسة، كما أنه غدا عرضة لهجمات قوية وقاتلة توجه إليه سواء من الداخل أو الخارج.

إن نقطة البدء في التصحيح تكمن في المعرفة، أقصد معرفة الذات والآخر. وهنا أستسمحكم في أن أطرح هذا السؤال: هل نعرف ذاتنا؟ أي هل نعرفها معرفة حقيقية؟ وكذا هل نعرف الآخر على النحو الصحيح؟ وحين أقول المعرفة، فإنني أعني المعرفة النقدية التي تؤدي إلى إدراك جوانب ضعفنا، وكذا جوانب قوتنا، والتي تؤدي كذلك إلى إدراك جوانب قوة الآخر وضعفه.

لعلّ ما يساعدنا على ذلك كتابات الأجانب الذين حرّروا مذكرات أو تقارير، وكان فيهم علماء ورحالة لاشك، ولكن كان فيهم - إن لم يكن جلّهم - جواسيس كانوا يتسرّبون للمجتمع الإسلامي ويندمجون فيه متنكرين ومدّعين للإسلام، وكانوا كذلك يتمكّنون من كتابة تقارير، كانت لاشكّ على ما قد يطبعها من مبالغة وتشويه - تمهّد للاستعمار، أو هي داخلة في نطاق مشروع استعماري لوضع اليد على البلاد الإسلامية واحتلالها.

ومن الأمثلة على ذلك، ما تكشفه المذكرات التي كتبها الجاسوس البريطاني همفري Humphrey إثر مهمة من هذا الصنف. وكنت قد اطلعت على بعض فصولها مترجمة إلى العربية من شخص مجهول اكتفى بالإشارة إلى اسمه بذكر حرفه الأول.

وبعد بحث في مواقع الإنترنت، تبين لي أن هناك كُتّاباً كثيرين يحملون اسم همفري، وأن بعضهم كتب مذكرات، وإن كانت ذات طابع أدبي، بل إن من بينهم من كان معاصراً لهذا الجاسوس.

وبالرجوع إلى مذكرات هذا الجاسوس، يتبين أنه كان موفداً من وزارة المستعمرات البريطانية عام 1710م إلى كل من مصر والعراق وطهران والحجاز والأستانة ليجمع المعلومات الكافية التي تعزّز سبل تمزيق المسلمين ونشر السيطرة على بلاد الإسلام. وكانت مهمته تقتضي - كما يذكر - إيجاد نقطة

الضعف عند المسلمين للتمكّن من الدخول في جسمهم وتبديد أوصالهم. وقد أطلّعت الوزارة من أجل ذلك على كتاب ضخّم من ألف صحيفة عنوانه : «كيف نحطّم الإسلام ؟» كما اطلع بعد ذلك على وثيقة سرّية من خمسين صفحة هي في الحقيقة خطّة لتنفيذ هذا التحطيم، أي للقضاء على «الرجل المريض» الذي يقصد به «الأمبراطورية العثمانية» التي كان خبراء الوزارة يقدرّون أنها ستنتهي في أقل من قرن.

وهكذا قدمت المذكرات ما جاء في الكتاب، على هذا النحو :

- 1 - أسباب ضعف المسلمين.
- 2 - مع كل نقطة ضعف ما يقابلها من قوة في الإسلام.
- 3 - أسباب القوة التي يجب القضاء عليها.
- 4 - ضرورة توسيع نقط الضعف.
- 5 - وجوب طمس نقط القوة.

وتشير المذكرات إلى جملة من نقاط الضعف، نستعرض أهمّها كالآتي :

- 1 - الاختلاف بين السنّة والشّيعة، والاختلاف بين الحكّام والشعوب، والاختلاف بين حكومتي الأتراك والفرس، والاختلاف بين العشائر، والاختلاف بين العلماء والحكومة.
- 2 - الجهل والأمّية.
- 3 - خمول الروح وذبول المعرفة وفقدان الوعي.
- 4 - ترك الدنيا والتعلّق بالآخرة.
- 5 - دكتاتورية الحكّام والاستبداد الشامل.
- 6 - عدم أمن الطرق وانقطاع المواصلات إلّا نادراً.
- 7 - تدهور الصحّة العامّة.
- 8 - انهيار الاقتصاد،

- 9 - عدم وجود جيوش نظامية، وعدم السلام الكافي، ورداءة الموجود منه.
- 10 - احتقار المرأة وهضم حقّها.

وكان الكتاب يذكر بعد كل نقطة ضعف أن الإسلام يأمر بالعكس، فهو يأمرهم :

- 1 - بالجهاد.
- 2 - بطلب العلم.
- 3 - بالوعي.
- 4 - بالمشورة.
- 5 - بتأمين السبيل.
- 6 - بتعهد الأبدان والحفاظ على الصحة.
- 7 - بالعمران والنظام.
- 8 - بقوة الاقتصاد.
- 9 - بقوة الجيش والسلاح.
- 10 - باحترام المرأة.

أما نقط القوة الموجودة التي ذكرها الكتاب، وأمر بالعمل على هدمها فمنها أنهم :

- 1 - لا يعيرون اهتماماً للقوميات والإقليميات والألوان.
- 2 - يحرم عندهم الربا والاحتكار والبغاء والخمر والخنزير.
- 3 - يتعلقون بعلمائهم.
- 4 - يحبّون الرسول ﷺ وخلفاءه.
- 5 - يوجبون الجهاد.
- 6 - يتمسكون بالعقيدة ويمارسون العبادات.
- 7 - يدعون إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- 8 - يحتفظون بتقدير كبير للقرآن الكريم والحديث الشريف.

انطلاقاً من مثل هذه النقاط، يدعو الكتاب إلى ما يمكن أن يُعمل من أجل

توسيع نقاط الضعف، فيشير إلى ما يلي :

- 1 - تركيز الاختلافات.
- 2 - إبقاءهم على الجهل واللاوعي.
- 3 - تقوية دكتاتورية الحكّام.
- 4 - الإبقاء على عدم أمن الطرق.
- 5 - الإبقاء على حالتهم اللأصحية.
- 6 - الإبقاء على الفوضى بإظهار أن الإسلام دين عبادة فقط.
- 7 - العمل على تعميق تدهور الاقتصاد.
- 8 - إلهاء الحكّام بالفساد والخمر والقمار وتبذير الأموال في الأمور الشخصية.
- 9 - إشاعة أن الإسلام احتقر المرأة.

وهكذا أوصى الكتاب بطمس جوانب القوة، على هذا النحو :

- 1 - إحياء النعرات القومية والإقليمية واللغوية واللونية وما هو سابق على المرحلة الإسلامية.
- 2 - العمل على انتشار الخمر والبغاء والقمار ولحم الخنزير.
- 3 - إضعاف صلة المسلمين بعلمائهم، بإصاق التهم بهم وإدخال عملاء في زيّ العلماء.
- 4 - التشكيك في أمر الجهاد.
- 5 - بثّ الاعتقاد بأن المقصود بالإسلام في القرآن هو الدين بصفة عامّة، سواء أكان اليهودية أم النصرانية، وليس ما دعا إليه سيدنا محمد ﷺ فقط.
- 6 - صرف المسلمين عن العبادات والتشكيك في جدواها، واتهام الإسلام بأنه دين التخلف.

7 - فصل الأولاد عن آبائهم في مجال التربية، وكذا فصلهم عن العلماء والتوجيه الديني.

8 - إغراء المرأة بالخروج عن التقاليد.

9 - العمل على إلغاء صلاة الجمعة.

10 - هدم المقابر والأضرحة باعتبارها بدعة.

11 - الطعن في نسب آل البيت.

12 - إشاعة مفهوم الحرية بدون حدود.

13 - تشجيع تحديد النسل.

14 - منع الدعوة للإسلام.

15 - التشكيك في القرآن الكريم ونشر قرآن مزيف.

وحرصاً من الخطة البريطانية على تحقيق أهدافها الاستعمارية، فإنها دعت إلى :

1 - التعاون مع قياصرة روسيا للاستيلاء على المنطقة الإسلامية، كبخارى وتاجكستان وأرمينيا وخراسان.

2 - التعاون مع فرنسا وروسيا.

3 - إثارة النزاعات بين الدولتين التركية والفارسية.

4 - العمل على إعطاء قطع من البلاد الإسلامية لغير المسلمين، كالترب لليهود، والإسكندرية للمسيحيين.

5 - التخطيط لتقسيم حكومتي تركيا وفارس إلى حكومات محلية صغيرة ومتنازعة.

6 - زرع الأديان والمذاهب المزيّفة في جسم البلاد الإسلامية.

7 - نشر الفساد بين المسلمين.

8 - زرع الحكّام الفاسدين في البلاد، بحيث يكونون طوع بريطانيا .

9 - منع اللغة العربية حسب الإمكان، وتوسيع نطاق اللغات الأخرى.

- 10 - زرع العملاء حول الحكّام، وإيصالهم إلى رتب المسؤولية.
- 11 - توسيع نطاق التبشير المسيحي عن طريق فئات مختلفة من أطباء ومهندسين وجمعيات خيرية وغيرها.
- 12 - تمييع الشباب الإسلامي.
- 13 - إشعال الحروب والفتن الداخلية.
- 14 - تحطيم كل المظاهر الاقتصادية.

تلکم كانت الخطة التي رسمتها وزارة المستعمرات البريطانية من خلال معرفة دقيقة - وإن كانت بعض جوانبها لا تخلو من مبالغة وتشويه كما قلت - فهل نجحت في خطتها؟

الجواب لا شك بالإيجاب، بدليل ما آل إليه أمر الأمبراطورية العثمانية والدول الإسلامية عامة، حتى التي لم تشر إليها الخطة كالمغرب وبقية دول الشمال الإفريقي؛ مع التنبيه إلى النفس الطويل والإصرار على مواصلة تنفيذ الخطة، ممّا تدل عليه الفترة التي استغرقها هذا التنفيذ، وهي قرن أو أزيد من قرن.

وإنني - حضرات الزملاء الأفاضل - وأنا أستعرض مثل هذه الحقائق والوقائع، لا أتردد في القول بأنّه ما أشبه اليوم بالبارحة، أو بعبارة أخرى، أن ما يقع اليوم هو امتداد ونتيجة لما وقع بالأمس.

ويبقى السؤال هو هو: هل لدينا معرفة حقيقية بالذات والآخر ؟

